إشكالية الخطاب الإسلامي المعاصر

د. أبوعبيدة علي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبد اللّٰه النبي الذي أخرج اللّٰه به الناس من الظلمات إلى النور، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأنصاره ومن سار على نهجه واتبع هداه إلى يوم الدين، أما بعد

فهذان مقالان نشرتهما بمجلة الرائد والتي كانت تصدر في ألمانيا، ونشرا في العددين 151، 154 واللذان صدرا في عام 1413 هجري الموافق 1993 م.

وقد آثرت تركهما من غير تعديل أو إضـافة[1]، كما آثرت أن أنشـرهما منفصـلين عما يمكن أن يضاف إليهما مستقبلًا.

سائلًا اللّٰه تعالى النفع لي ولكم

والحمد لله رب العالمين.

د. أبوعبيدة علي

---

[1] حدثتُ المراجعَ، وصححت ألفاظًا إملائية قليلة.

إلى والديَّ

رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا

أحادية التسبيب

يلاحظ الناظر في الخطاب الإسلامي المعاصر أوجهًا من الخلل تكتنف لغة الخطاب ومضمونه، وما يمكن أن يلاحظ في مضمون الخطاب الإسلامي المعاصر أنه يقيم الأحداث والقضايا المطروحة تقييما ناقصًا أو مبتورًا، ويفرض هذا موقفًا غير مستقيم، أو غير

صــحيح، وينتج هـذا كلـه عن النظرة الأوليـة، أي نظرة معرفـة السبب والدافع لما حدث، والذي على ضوئه يمكن - بالإضافة إلى عوامـل أخرى - اتخـاذ الموقف الصحيح.

وأحـد أســباب هـذه النظرة النـاقصـــة تســبيـب الأحـداث والقضـــايا وتعليلها بأمر واحد - في غالب الأحيان - فحين ننظر إلى رؤية خطاب تيار إســلامي

لنشـاط الدولة التي يمارس فيها ذلك التيار نشاطه نجده أنه يرى أن كل تحرك لمؤسـسـات الدولة من: إعـلام، أو أجـهـزة أمـن، أو نشـــاط ديـنـي، أو فـي نـطـاق الأحزاب أو غير ذلك، إنما هدفه الأوحـد هو محـاربـة الإســلام ودعاة الإسلام وشباب الإسلام!!

وهـذا التنـاول ليس قـاصــرًا فقط على الـدولـة التي تمـارس الجماعة نشـــاطها فيها، بل إذا

نظرنا إلى رؤية الخطاب الإسلامي المعاصر للدول الغربية، فإننا نجد أن قسمًا كبيرًا منه يرى أنه لا هم لأمريكا ودول الغرب إلا التخطيط لمحاربة الإسلام في كل بقعة من البقاع، وفي كل لحظة من اللحظات!! حتى إنه يمكن أن يقع في روع المرء - من خلال هذا الخطاب - أن هذا هو الهم الأكبر، وأن كل

الأنشـــطة إنما تكون لفائدة هذا الهدف الأسمى.

أمـا حين تقع مصـــيبـة من المصـــائب أو أزمة من الأزمات في بلادنـا الإســـلاميـة فـإن الحديث لا يكون - في غالبه - إلا في نطـاق أن هـذا هو تخطيط الإمبريـاليـة الغربيـة، أو القوى الصـليبية، أو الكيد الصـهيوني، وأنهم وراء كـل ذلـك تخطيطًـا

وتنفيـذًا وإشـــرافًا، ثم ابتهاجًا وقطفًا للثمار!!

ولو أخـذنا أزمة الخليج مثالًا على ذلك، لوجدنا أن هذا المنحى من التنـاول كـان غـالبًا في كثير مما كان من تناول لأزمة الخليج.

فكان هناك تصـوير وتفسـير لـلأزمـة يـرى أن أمـريـكـا قـد خططت منذ ســنوات للوقيعة بين الجـارتين العراق والكويـت، وأنها قد دفعت بالعراق - لغرض

آخر - للحرب مع إيران، وفي أثناء حرب العراق مع إيران، دفعت أمريكا الكويت إلى الإضرار بالعراق، عن طريق ضخ بترول بكميات كبيرة تؤثر على سعره العالي، مما يؤدي إلى الإضرار بالاقتصاد العراقي، فضلًا عن سحب كميات من بترول العراق والتي لا حق للكويت فيها!! فكان الخلاف، ثم صعدت أمريكا الخلاف بعد أن

أوجدته وزينت للعراق دخول الكويت فدخلها! وأمرت دول الخليج باستقبال القوات الأجنبية في أراضيها فاستقبلتها! ثم كانت من بعد من وراء تعنت العراق بوضع حلول صعبة للأزمة يبعد أن يوافق عليها العراق، ثم كانت الحرب، فالدمار، فإعادة البناء بأيدي الشركات الأمريكية وسواها من دول التحالف!!

وقد يكون بعض أجزاء هذه الصـورة صـحيحًا، ولكنه ليس بالحجم الذي كان يصـور به من دور أمريكا في إدارة الأزمة من ألفها إلى يائها!!

وينطبق هـذا على كثير من أشـكـال الخطـاب الإسـلامي المعاصـر في الأزمات والمحن: التركيز على العـامـل الخـارجي، وتحميله كل تبعة وتوزيره كل نتيجـة!! من غير التفـات إلى

العامل الداخلي أو تهميشه، على الرغم من أنه قد يكون هو صاحب النصيب الأوفر، وربما يكون هو السبب الرئيس، ويكون العامل الخارجي قد استغل ذلك الضعف والخلل الداخلي فانقض!!

والخطورة في هذا المنحى من تحليل الأحداث وتقويمها، أنه يشغلنا عن المراجعة والمحاسبة والتقويم!! لعدم

الالتفات أصــلًا إلى وجود وهن داخل البنية الذاتية.

وثمـة نتيجـة أخرى خطيرة وهي: أن اسـتمرار تحميل العدو الخارجي مسـؤولية كل شـيء، وتبعـة كـل خطيئـة، يؤدي إلى تضـخيم صـورة العدو، وإعطائه حجمًا أكبر من حجمه الحقيقي، حتى تصـير صــورة العدو في الأذهان هي صــورة من يمسـك بخيوط اللعبة في يـده، ويحرك

المسرح كله وفق إرادته ومصالحه، ولا يكون على خشبة المسرح إلا ما يريد.

وهذه النتيجة خطيرة إذ ماذا يجدي عمل مع هذا المكر والكيد والتدبير المحكم؟

تدب روح يأس في الأمة.. تسري في كياننا الإسلامي فتزلزله، وتصدع بنيانه ونكون نحن عاملًا من عوامل وجوده،

بـل ربمـا نكون نـحن الـذيـن زرعناها وأنبتنا شجرتها!

ومن أسـف أن هذه الروح لم تقف عند عوام الأمـة بـل إنهـا بدأت تدب في نفوس العاملين للإسلام!!

ومن قبيـل الاسـتطراد في هـذا المقـام أقول: إنـه كـان. ولايزال – لا تعجبني تلك الحالة الـتي تضـفى علـى اليـهود ومخططاتهم، وأنهم يسـيطرون

على مقدرات الشعوب في أنحاء الأرض في كل مجال: سياسي، أو إعلامي، أو اقتصادي، أو غير ذلك، فهم الذين يوجهون السياسة العالمية: الأمريكية، والروسية، والفرنسية، ... وكذا يفرضون سيطرتهم على الأمم المتحدة، أما الهيمنة اليهودية على الاقتصاد العالمي فهذا ما لا يكاد يشك فيه أحد، ولا يجرؤ أن يماري فيه ممار!!

وهذا التصوير لا شك يسعد الأعداء ويسرهم أكبر السرور، فقد أزاح عنهم عبء الحرب النفسية ضد أعدائهم من المسلمين.

ونحن لا ننكر - ولا يستطيع من يحاول ذلك - الدور المدمر الذي يقوم به الغرب وأمريكا لمقاومة الإسلام كيدًا منهم، وحسدًا من عند أنفسهم، هذا الكيد الذي تسخر له أموال،

وحكومات، ورؤســـاء، وأحزاب، وإعلام في بلاد المسلمين، وفي غير بلاد المســـلمين أيضًـــا؛ لمقاومة الصـــحوة الإســـلامية، ومحاولة إجهاضها، أو وأدها في مهـدهـا، ببـث عوامـل الانهيـار والـفـرق والـتـنـاحـر فـيـهـا، ومحاربتها بكل وســـيلة ممكنة ومجـديـة، فهـذا المكر والكيـد نؤمن به؛ ونحن نقرؤه في كتابنا الكريم، ونؤمن به ونحن نعايشه

واقعًا نكتوي بناره، فهو قديم قدم هذا الدين، وهو باق بقاء هذا الدين، حتى يأتي أمر اللّٰه:

﴿**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا**﴾ سورة الطارق: 15 – 16.

﴿**وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ سورة آل عمران: 69.

﴿وَإِنْ كَـادُوا لَيَفْتِنُونَـكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ سورة الإسراء: 73.

﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّـذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَـابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ سورة آل عمران:179.

﴿وَلَنْ تَرْضَـى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ سورة البقرة:120.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ سورة البقرة: 109.

«لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[1].

---

[1] سنن ابن ماجة - أَبْوَابُ السُّنَّةِ - بَابُ اتباع سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - ح (6)، سنن

ولكن ليس من العدل مع أنفسنا أن نحصر أسباب الحالة التي نحياها في الدور الخارجي الكائد فقط، فالأحداث لا يكون لها سبب واحد؛ بل أسباب متعددة ومتنوعة، والكيد الخارجي - على عظمه - واحد منها.

الترمذي - أبواب الفتن - باب ما جاء في الشام - ح (2192).

والمســـلم وقـت الفتنـة لا يشغله شأن عدوه عن النظر في حـاله هو، وعنـدما يشـــغل عن النظر في موقفه وتقييمه، فإن هذا يصير من أسوأ نتائج الفتنة وأشـدها خطرًا على المســلمين، فيبقى المســـلم مقيمًـا على الأخطاء كما هي من غير التفات إليهـا، بـل لابـد من التنبـه إلى العوامـل الـداخليـة النـابعـة من ذواتنـا، ومن منـاهجنـا، ومن

ممارســاتنا، وهذه كلها نبصــرها نحن ونلمس آثارها، ونملك في الوقت ذاته تقويمها وإصـلاحها، إذا كانت عندنا الإرادة والتصميم على ذلك.

ولكن قد يتم إغضـاء الطرف عن الأسباب الداخلية لسبب من الأســباب الواهية مثل: الحرص عـلى وحـدة الـحـركـة، وعـدم توهين عزائم الأفراد، أو عـدم الكشــف عن الأخطـاء أمـام

الأعـداء، أو المحـافظـة على مكـانـة الجمـاعـة أو الهيئـة أو المؤسسة!!

ويحـدث هـذا على الرغم من التوجيه القرآني الصريح القاطع ﴿**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾ سورة آل عمران: 120.

إنه لأســباب من داخلنا كان الضرر الآتي من خارجنا:

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِـــكُمْ﴾

سورة آل عمران: 165.

﴿مَا أَصَـابَكَ مِنْ حَسَـنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَـابَكَ مِنْ سَـيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ سورة النساء: 79.

«**يوشِـــكُ الأُممُ أن تَـداعَى عليكم كمـا تَـداعَى الأَكَلَـةُ إلى قَصْــعَتِها**؛ فقال قائل: ومن قلَّةٍ نحن يومئـذٍ؟ قـال: **بـل أنتم يومئـذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثـاءٌ كغثاء السَّـيلِ، ولَينْزِعَنَّ اللّٰهُ مِن**

صـــدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليـقـذفـنَّ اللّٰهُ فـي قـلـوبِـكـم الوَهْنَ». فقال قائلٌ: يا رسُـــولَ اللّٰه، ومـا الوهنُ؟ **قـال: «حـبُّ الدُنيا وكراهيةُ الموتِ»**[1].

[1] سنن أبي داود - كتاب الملاحم - باب في تداعي الأمم على الإسلام - ح (4297).

رفض الآخر

من حقائق الوجود البشــري التي لا يعوز إثباتها أو بيانها دليل أو برهـان: اختلاف النـاس فيمـا بينهم في سائر أوجه النشاط الإنساني.

ومـرد هـذا الاخـتـلاف إلـى عوامـل كثيرة منهـا الفروق الفرديـة بين الأفراد، وتبـاين البيئـات وغير ذلك.

وهذان السـببان وغيرهما من الغرائز والعواطف والعـادات هي مكونات أو مؤثرات السلوك الإنساني فهي توجهه وجهة الخير أو وجهة الشر.

والتشـريع الإسـلامي - وهو تشـريع إلهي قويم - يأتي ليضـبط سـلوكيـات البشـر ومعتقـداتهم وأفكارهم ولا يـدعهـا نهبًا للرغبـات والغـرائـز والعـواطـف الـفرديـة أو

الفئوية أو الجماعية من غير رادع أو مانع.

ولا يعني هذا أن التشريع الإسلامي يخالف الطبيعة البشرية، إنما هو يوجهها وجهتها السليمة أو الفطرية بما يعود بالنفع على المجتمع كله لا على فرد أو طائفة أو جماعة، في الوقت الذي يعود الضرر فيه على الآخرين.

فالشارع يأتي إلى طائفة من المعتقدات والأفكار والسلوكيات

ليحكم عليها بالبطلان، ويأتي إلى طائفة أخرى فيلزم بها ويوجبها، وحينئذ لا يسع المسلم المتمسك بدينه إلا الامتناع عن الطائفة الأولى، وإتيان الطائفة الثانية إرضاءً الله تعالى وامتثالًا لأمره، وهذا الامتثال إنما هو من متممات إيمانه وعبوديته لله تعالى.

والمصدر في هذا كله هو نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والنصوص

الشــرعيـة في هـذه الحـالـة تكون واضحة وقطعية الدلالة على المراد.

ولكن هناك من القضـايا - وإن ورد ذكرها في القرآن أو الســنة - ما لا يكون الموقف الشــرعي فيهـا محددًا بصــورة قاطعة، بل تختلف الأفهام فيها اختلافًا مقبولًا.

وهذا الصــنف من النصــوص هو مـا يعبر عنـه علمـاء الأصــول بالنصـوص ظنية الدلالة، وهو مجال اجتهـاد المجتهـدين ونظر الفقهـاء

قصـد اسـتخلاص الحكم الشـرعي منه.

ونـظـرًا لـعـوامـل كـثـيـرة - والاسـتقراء شـاهد على ذلك - فإن الغالب ألا يقع اتفاق في هذا الصنف؛ بل يقع الاختلاف فيـه إلى رأيين أو أكثر، كل مجتهد حسـب قواعـده الأصـولية، وعلى مقدار ما أوتي من فقه وملكة.

وهذا الاختلاف لا غبار عليـه ولا مؤاخـذة فيـه، بـل إنـه نتيجـة

طبيعيـة للاجتهـاد وإبـداء الرأي مـا دام أن هذا كله قد تم وفق القواعد والأصول الشرعية للاجتهاد والنظر.

ومن هـذا القبيـل أيضـــا المســـائل المســـتجدة التي لا نص فيها، فهذه يجتهد فيها المجتهدون لإلحاقها بالشـــبيه أو النظير وفقًا لقواعد التشريع الإسلامي وانسجامًا مع مبادئه، وليس هذا قاصـــرًا على المســـائل الفقهية بالمعنى المتعارف عليـه؛ بـل إنـه يعم جميع أنواع

الأحكام الفقهية: التعبدية، والفكرية، والحركية، وأحكام المعاملات، ....

ولا شك أن كل صاحب رأي - وقد اجتهد في إدراكه - يرى أن هذا الرأي هو الأصوب والأقرب لمرضاة الله تعالى، وأن ما سواه من الآراء ليس على هذه الشاكلة وفقًا لاجتهاده، وهذا أمر لا غبار عليه ولا خطر منه، بل إنه لا يشرع لمسلم أن يعمل عملًا إلا وهو يرى أنه الأصوب، على قدر ما بلغه

علمه، وهذا يعني أن غير هذا الرأي ليس عنده كذلك!! ولا يجوز لمسلم أن يفرط في هذا لأي سـبب من الأسباب.

ولكن الإشـكالية تكمن حين يرى كل صـاحب رأي أن من اتخذ رأيًا مخالفًا لرأيه على الباطل.. والضلالة.. والمشاقة لله ورسوله.. وأن أعماله لا يقبلها الله تعالى، ولا يرضاها...!!

وهذه ظاهرة مرضية خطيرة في واقع الأمة الإسلامية المعاصرة، ويظهر هذا السلوك في الخطاب الإسلامي المعاصر ظهورًا جليًا وعلى وجه الخصوص عند الخلاف في المسائل المتشابكة والخطيرة في آن واحد!!

ويعني هذا السلوك في كلمات بسيطة: **رفض الآخر أو إلغاء الآخر**، فحين يرى صاحب الرأي أن الصواب والحق جزمًا في

جانبه، وأن رأيه لا يحتمل أي نســبة من الخطأ، وأن الآخر لا يحتمل رأيه أي نسـبة من الصـواب فإنه يرفضـه ويلغيه.

وحين تتوجه اهتمامات فرد من الأفراد، أو جماعة من الجماعات إلى جـانـب مـا من جوانـب المعرفة الإســلاميـة أو العمـل الإســلامي، فيكون التركيز عليـه دون إنكـار أو إهمال مضـيع للجوانب الأخرى، فإن الآخر قد يرفض هذا الجنوح ويعد

ذلك تهمة يصِم به المخالف ويضادها بها!!

وليس هذا قاصرًا على جانب الفكر والرأي فحسب، بل إنه يتجاوزه إلى نطاق الأفعال، فحين يرى صاحب الطاعة المتخلق بهذا الخلق الآخر وهو يعصي الله في طاعة يأتيها الأول، أو في غيرها، أو أنه لا يتقرب إلى الله تعالى بمثل ما يتقرب به؛ فإنه يسقط عنه كل

اعتبار، وينفي عنه كل فضـــيلة في كل معصية ومع كل تقصير!!!

وسوف نعود إلى هذا الجانب في موضـع آخر إن شـاء اللّٰه تعالى، ولكنا نذكر هنا بحديث رسول اللّٰه ﷺ حين أتي شـــاربُ الخمرَ ليُقام عليه الحـد فقـال رجـل من القوم: اللَّهُمَّ الْعَنْـهُ! مَـا أَكْثَـرَ مَـا يُؤْتَى بِـهِ؟! فقـال

النبي ﷺ: «**لَا تَلْعَنُوهُ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**»[1].

ومخاطر هذا السلوك خطيرة وعواقبه وخيمة على الفرد ذاته أو الجماعة أو الفرقة، وكذا على الأمة بمجموعها، حين يخرج هذا السـلوك من كونه رأيًا ذهنيًا إلى كونه سـلوكًا إيجابيًا أو سـلبيًا، ولهذا السـلوك

---

[1] صحيح البخاري - كتاب الحدود - باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة - ح (6398).

جوانب من الخطر متعددة ولكنا سوف نكتفي هنا بإبراز بعض وجوه الخطر:

أولًا: إن هذا السلوك سبب عظيم من أسباب الفرقة والتناحر والتدابر، بل لعله هو السبب الأكبر، والعامل الأعظم لكل ذلك. فالذي يرفض الآخر بهذه الصورة المتقدمة لا يرى جواز الالتقاء معه، وقد يرى أنه ليس على شيء؛ ولو اتفقا في بعض الأمور، بل إن البعض يرى أن

مفارقة من كان هذا حاله ومنابذته من متممات دينه التي يتقرب بها إلى الله تعالى.

وهذه علة من علل أهل الكتاب التي ورثها المسلمون منهم على الرغم من أنها أحد أسباب تناحرهم ومن ثم هلاكهم، يقول الله تعالى واصفًا أهل الكتاب ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ**

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ سورة المائدة: 14.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام نفيس في هذه الآية وهو يتحدث عن الجماعة والفرقة ذاكرًا أسباب ذلك بعد أن أورد الآية المتقدمة يقول: «فأخبر أن نسيانهم حظًا مما ذكروا به - وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به - كان سببًا لإغراء العداوة والبغضاء بينهم، وهكذا هو

الواقع في أهل ملتنا؛ مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة في أصول دينها، وكثير من فروعه، من أهل الأصول والفروع، ومثلما نجده بين العلماء، وبين العباد، ممن يغلب عليه الموسوية، أو العيسوية، حتى يبقى فيهم شبه من الأمتين اللتين قالت كل واحدة: ليست الأخرى على شيء. كما نجد المتفقه المتمسك من الدين بالأعمال الظاهرة، والمتصوف المتمسك منه بأعمال

باطنة كل منهما ينفي طريقة الآخر، ويدعي أنه ليس من أهل الدين، أو يعرض عنه إعراض من لا يعده من الدين فتقع بينها العداوة والبغضاء»[1].

وبعد أن بين رحمه الله تعالى أن الله أمر بكل من الجانبين: طهارة البدن، وطهارة القلب، وأن البعض يغالي في طهارة البدن، حتى يزيد

1 مجموع الفتاوى – 15/1

فيه على المشــروع في الوقت الذي يترك فيــه طهــارة القلــب فتحمــل قلوبهم الكثير من الحســـــد والكبر والغل لإخوانهم، وفي هذا مشـــابهة بينــة لليهود، كمــا أن الفريق الآخر بغالي في طهارة القلب حتى يزيد فيه على المشــروع في الوقت الذي يترك فيــه طهــارة البــدن فيخرجون إلى الغفلــة المــذمومــة والجهــل بمــا تجب معرفته من الشــر فيضــاهئون النصـــارى، ثم قال بعد ذلك : «وتقع

العداوة بين الطائفتين بســـبب ترك حظ مما ذكروا به، والبغي الذي هو مجاوزة الحد: إما تفريطًا وتضـــييعًا للحق، وإمـا عـدوانًـا وفعلًا للظلم، والبغي تارة يكون من بعضـــهم على بعض، وتـارة يكون في حقوق اللّٰه، وهمـا متلازمـان ولهـذا قـال ﴿**بَغْيًـا بَيْنَهُمْ**﴾؛ فإن كـل طـائفـة بغت على الأخـرى فـلم تـعـرف حـقـهـا الـذي

بـأيـديهـا، ولم تكف عن العـدوان عليه»[1].

ثانيًا: وفي هذا السـلوك بغي وتطـاول على الآخرين من غير مســوغ لـذلـك؛ ولو وجـدت في الآخرين المخالفة لبعض نصــوص وأحكـام شــرع الله تعـالى؛ فـإن الواجـب في مثـل هـذه الحـالـة: النصــح، والأمر بـالمعروف، والنهي

[1] مجموع الفتاوى ـ ابن تيمية ـ 1/ 16.

عن المنكر؛ فيما إذا لم يكن للآخر دليل يعتمد عليه.

أما محاولة جعل الناس جميعًا على نمط واحد في الفقه، والفكر، والرأي؛ فإن هذه لا يتأتى لأحد، والجهد المبذول في ذلك مصيره إلى الزوال.

وأما طعن الناس عند عدم الاستجابة فإن هذا من البغي والكبر الذي جاء النهي عنهما في الشرع، فقد جاء في الحديث عن رسول

الله ﷺ أنه قال: «**إذا قالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فهو أَهْلَكَهُمْ**»[1]، وقد نقل النووي عن الحميدي «أن المعنى أشدهم هلاكًا»، ونقل عن الخطابي قوله «معناه لا يزال الرجل يعيب الناس، ويذكر مساويهم ويقول فسد الناس، وهلكوا ونحو ذلك فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم أي أسوأ حالا منهم

---

[1] صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب النهي من قول هلك الناس – ح (2623).

بما يلحقه من الاثم في عيبهم والوقيعة فيهم»[1].

وجاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا لِكَيْ لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**»[2]، أي لا يستطيل أحدٌ لفضلٍ فيه من علمٍ، أو جاهٍ، أو مالٍ على

---

[1] شرح صحيح مسلم ـ النووي ـ 16/ 175.

[2] صحيح مسلم - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار – ح (2865).

أحد خلا عن ذلك. وفي حديث آخر قـال ﷺ : «**الكِبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ النـاس**»[1]، أي الارتفـاع على النـاس واحتقارهم.

وقـد يـؤدي هـذا السـلوك بصـاحبه - فردًا كان أو جماعة - إلى الغرور والانخداع بالنفس، فإنه يرى صـواب رأيه الذي لا يحتمل الخطأ، وحينئـذ ينزلق في مزلق مهلـك، إذ

---

1 صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب تحريم الكبر وبيانه – ح (91).

أنـه لا يلتفـت إلى آرائـه وأعمـالـه وأفكاره ليراجعها ويقوِّمُ منها ما كان معوجًـا، فيهلـك بـذلـك. وهـذا أحـد تفسيرات الحديث المتقدم «**إذا قالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فهو أَهْلَكَهُمْ**»، فقـد قـال الخطـابي كمـا نقلـه عنـه النووي: «وربما أداه ذلك إلى العجب بنفســـه، ورؤيتـه أنـه خير منهم فيهلك».

إن حتمية الخطأ من البشـــر تعـنـي أن الـمـرء يـكـون فـيـه مـن

الصواب والخطأ في أفعاله، وأقواله، وأفكـاره، وتوجهـاتـه، فليس هنـاك أحـد خـالص الخير ولا آخر خـالص الشــر، وكذلك فليس هناك مســلم – حاشا رسول الله ﷺ - خالص الطاعة وصــواب العمل، ولا آخر المعصــية وفســـاد العمل «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»[1].

---

[1] المسند – الإمام أحمد بن حنبل ـ مسند أنس بن مالك – ح (13049)، شعب الإيمان ـ البيهقي ـ الثامن من شعب الإيمان وهو

«وَالَّذِي نَفْسِـــي بِيَـدِهِ لو لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُـذْنِبُونَ، فَيَسْـــتَغْفِرُونَ اللَّـهَ فَيَغْفِرُ لهمْ»[1].

لقد شـــهدت القرون الخيرة خلافًـا بين العلمـاء فيمـا يجوز

باب في حشر الناس بعد ما يبعثون من قبورهم ـ ح (273)، المسند ـ البزار ـ مسند أبي حمزة أنس بن مالك – ح (7236).

[1] صحيح مسلم – كتاب التوبة - باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة – ح (2749).

الخلاف فيه ويسوغ اجتهادًا منهم، ولم يكن الواحد منهم ليضلل مخالفه، أو يفسقه؛ وإن كان ينكر عليه، ويرشده إلى الصواب الذي رآه.

وكان من الصحابة - وهو الجيل الأول المصطفى - من يولي اهتمامه سماع الحديث من رسول الله ﷺ وتبليغه من بعد، ومنهم من يولي اهتمامه كتاب الله تعالى تلاوة

وتفسيرًا، ومنهم من كان همه الخروج في سبيل الله تعالى في الغزوات والمعارك، و منهم من يقرض الشعر دفاعًا عن رسول الله ﷺ وتبليغًا للدين وهكذا ... وهذه الصورة التي كان عليها صحابة رسول الله ﷺ، هي ذاتها التي يمكن أن تكون عليها بعض الحركات الإسلامية المعاصرة من اهتمام بجانب تربوي، أو ثقافي، أو سياسي، أو جهادي

دون إسـقـاط لـلـجـوانـب الأخرى!

وما علينا نحن أبناء هذه القرون المتأخرة إلا أن نتأسى بتلك القرون الخيرة، وأن يسعنا ما وسعهم من خلاف، وأن يكون منهجنا كمنهجهم في الاستمساك بالرأي الذي نراه صوابًا، وأن نعرضه على الآخرين داعين إلى تبنيه والعمل به، مع إحسان الظن بالمخالف

والتماس العذر له فيما نسب إليه من رأي مخالف، وأنه قد التمس الصواب بوسائله غير أنه - وفق وجهة نظرنا - لم يوفق في الوصول إليه فهو معذور في ذلك، بل مأجور، كما أن الصواب يمكن أن يكون معه.

ونشير هنا مرة أخرى إلى أن النقد والتقويم والتصحيح والإرشاد إلى الصواب كل ذلك مطلوب ومرغوب فيه،

والحاجة إليه شـــديدة، فلا يضـــيق من توجه إليه النقد ذرعًا بذلك، كما أن من وجد عنده رأيًا يخالف به الآخرين، وقـد ابتنى هـذا الرأي عنـده على نظر صـحيح، أن لا يمنع هـذا الرأي ويكتمه بـل عليـه إبلاغه والنصـــح به، مع بيان وجـه الصـــواب فـي الـرأي المتبنى، ووجه المخالفة في الرأي المردود، كـل ذلـك مع حسن العبارة في المخالف.

ولا يفوتنا هنا أن نشـــير إلى أن البعض يحاول الهروب من هذا المزلق الذي أشـــرنا إليه في موضـــوعنا هذا، فإذا به يقع في دائرة أخرى لا تقـل خطورة عن ســـابقتها، وذلك حين لا يتخذ موقفًا واضـــحًا من قضـــية من القضـــايا أو المســـائل المطروحة فيحاول الـتـوفـيـق بـيـن الآراء أو المســائل المطروحة أيًا كانت قـوة هـذه الآراء وأيًـا كـان

نصـــيبها من الصـــواب وذلك
لمجرد التوفيق، لا وفقًا
للدليل الشـــرعي المعتبر،
والمصـــلحة العامة للأمة
الإســـلامية، وهنا يعتبر
الموفقُ الصـــوابَ مع الجميع
من غير فرق بين أمور يمكن
أن يكون الصـــواب فيها في
أكثر من رأي، وبين أمور لا
تحتمل التوفيق بل لا بد فيها
من صواب وخطأ، فإن القول
بالصواب تترتب عليه مواقف

عملية، كما أن القول بالخطأ تترتب عليه مواقف عملية تختلف عن الأولى، وهذه التوفيقية عندما تتخذ منهجًا فإنها تفقد الهوية والشخصية المستقلة ويكون صاحبها في وضع أشبه بحالة الغسق الفكري!!!

وأكثر ما يقع الإسلاميون فيه في هذا الجانب هو محاولة الكثير منهم ألا يكون له انتماء لحركة من

الحركات الإسلامية العاملة
إما رفضًا للكل، وإما عدم
تفضيل لواحدة على أخرى،
وفي كل خطأ لا يحتاج إلى
بيان؛ غير أن أخطر ما يكون
هذا التوفيق حين يتعلق
الأمر بالعقيدة.

الفهارس

الآيات

أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ		
وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ	البقرة:120	17
وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ	البقرة: 109	17
وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا	آل عـمـران: 120	20

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ	آل عـمـران: 165	20
مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ	النساء: 79	21
وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ	المائدة: 14	24

الآحاديث

الكِبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس	40
كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ	42
وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لو لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لهمْ	42

المراجع

1) سنن ابن ماجه - ابن ماجه أبو عبد اللّٰه محمد بن يزيد القزويني - تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عَبد اللّطيف حرز اللّٰه - دار الرسالة العالمية - الطبعة الأولى - 1430 هـ - 2009 م.

2) سنن الترمذي - محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي - تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة

عوض - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر - الطبعة الثانية - 1395 هـ - 1975 م.

3) سنن أبي داود - أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني - تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي - دار الرسالة العالمية - الطبعة الأولى - 1430 هـ - 2009 م.

4) صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري - تحقيق: د.

مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير، اليمامة – بيروت - الطبعة الثالثة – 1407هـ - 1987م

5) مجموع الفتاوى - ابن تيمية – تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة النبوية - المملكة العربية السعودية - 1416هـ/1995م.

6) صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري -

تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت

7) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي - دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الثانية – 1392هـ.

8) مسند الإمام أحمد بن حنبل - أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني - تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد،

وآخرون - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى - 1421 هـ - 2001 م.

9) شعب الإيمان - أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي - تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية – بيروت - الطبعة الأولى - 1410 هـ

10) مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار - أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار - تحقيق:

محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي - مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة - الطبعة الأولى - 1988م، :2009م.

الفهارس